

الشعر الجاهلي واللغة ج 3

الكاتب: محمد الخضر حسين



نقض كتاب
«في الشعر الجاهلي»
محمد الخضر حسين

البحث عن أصل تاريخي جديد

قال المؤلف في ص ٢٨: «وإذا كان هذا حقًا - ونحن نعتقد أنه حق - فمن المعقول جدًا أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية المأجدة التي تتحدث عنها الأساطير.»

قد رأيت المؤلف كيف اقتدى بصاحب الذيل في دعوى أن القصة من صنع اليهود المستعمرين، ثم بدا له أن يحدث طلاب الجامعة بباعث آخر على وضع القصة وهو أنها صنعت لقريش يوم نهضت نهضتها السياسية القائمة على نهضتها الاقتصادية الدينية، وأخذت تبحث عن أصل قديم يتصل بالأصول التاريخية المأجدة، وقد لبس الكتمان هنا فلم ينم على من أسر إلى قريش بهذه الضالة التي قاموا ينشدونها، وقال لهم: إنكم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم. وربما كان هذا من أسرار كتابه التي لا يفضي بها إلا إلى المتعلقين بأذياله، فاسألوهم إن كانوا ينطقون.

أسطورة تأسيس الكعبة؟

قال المؤلف في ص ٢٨: «وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم، كما قبلت رومة قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة باينياس بن پريام صاحب طروادة.»

يريد المؤلف أن يقابل الجد بالهزل والحجة باللغو، يريد من هذه الأمم التي تعقل أكثر مما يعقل أن تضع قصة اليونان مع روما في وزان آيات تقوم بجانبها دلائل النبوة المتجلية في حياة أكمل الخليفة من حكمة في التشريع إلى استقامة في الأعمال، إلى بلاغة في الأقوال، إلى عدل في القضاء، إلى رشد في السياسة، إلى صدق اللهجة، إلى صرامة العزم، إلى حسن السمات، إلى

رونق الحياء، إلى ما جدع أنف الباطل، إلى ما قوض عروش الجبابة، إلى ما قلب العالم رأسًا على عقب، وموجز القول أن كل حلقة في سلسلة حياة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة، فإن أساليب دعوته ومظاهر حكمتها لا يربطها بالأمية وغير الأمية إلا من له الخيرة في أن يمنح البشر ما لا تعهده البشرية. هذه النبوة الساطعة، والهداية المحفوفة بالآيات من كل ناحية هي التي خطر على بال المؤلف أن يزلزل أركانها بحكاية أسطورة يونانية! يجعلون لروما تاريخًا خرافيًا، وتاريخًا حقيقيًا، والحقيقي يبتدئ من سنة ٧٥٣ قبل المسيح، وقصة أنياس داخله في دور التاريخ الخرافي، وقال ناقدوها: إنها صادرة من أرباب الخرافات والخزعبلات. وقصة إسماعيل لا يسهل على المؤلف أن يجعلها من هذا القبيل إلا إذا أنس من نفسه قوة على نقض الأساس الذي قامت عليه وهي رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وهو لا يستطيع أن يسئل من هذا الأساس لبنة ما دام قلمه لا يمشي إلا وقع في كبوة، ولا يطعن إلا رجع بنبوة: إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِي * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ.

استغلال الإسلام

قال المؤلف في ص ٢٩: «أمر هذه القصة إذن واضح. فهي حديثه العهد ظهرت قبيل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا. وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى.»

أمر الطعن في هذه القصة إذن واضح، فهو حديث العهد ظهر قبيل كتاب «في الشعر الجاهلي» واستغله كتاب في الشعر الجاهلي لسبب اقتصادي وديني غير إسلامي، ولم تقبله الثقافة الشرقية لسبب ديني وسياسي أيضًا، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل به عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى.

الصلة بين العربية الفصحى ولغة القحطانية

قال المؤلف في ص ٢٩: «وإذن فنستطيع أن نقول: إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلم بها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة.»

كنا وضعنا بين يديك أن الاختلاف بين العدنانية واللغة القحطانية لم يكن في العصر القريب من ظهور الإسلام بعيدًا إلى الغاية التي يخيلها إليك المؤلف، وقلنا لك: إن هضم اللغة العدنانية للغة القحطانية بعد الإسلام بآمد غير بعيد يدل على أن الفوارق بينهما أخذت تذوب منذ عهد الجاهلية، وهذا لا تعترضه الآثار المخطوطة باللغة المخالفة للعدنانية في نحوها وصرفها ولو دلت بتاريخها على أنها رسمت قبل الإسلام بعهد قريب؛ إذ قصارى ما تدل عليه أن لغة أهل المكان المنطوي عليه ذلك الأثر، أو اللهجة التي جرت عليها عادة الكتابة لم تتخلص من مميزاتها الشديدة، ولا يعترضه أيضًا قول أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا.» فإنه يصدق حيث يكون بين لغة حمير وأقاصي اليمن وبين لغة عرب عدنان اختلاف في بعض المفردات وشيء يسير من القواعد النحوية، وهذا الاختلاف سماه ابن جني في كتاب الخصائص (1) بعدًا، وأثبت مع هذا البعد أنها لغة عربية فقال: «ويكفي من هذا ما تعلمه من بُعد لغة حمير من لغة بني نزار.» ثم قال: «غير أنها لغة عربية قديمة.»

حديث أساطير

قال المؤلف في ص ٢٩: «وإن قصة العاربة والمستعربة وتعلم إسماعيل العربية من جرهم كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه.»

من الأمة العربية أقوام يدور حديثهم في الجزيرة ويتناقل المؤرخون أثرًا من أخبارهم كعاد وشمود وطسم وجديس وجرهم، ولم يبق على وجه الجزيرة من

ينتمي إلى هذه القبائل، وقد ذكر القرآن بعضها كعاد وشمود وقال في شأنهما: **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ** وهؤلاء يسمونهم البائدة لعدم بقاء جماعة معروفة تنتمي إليهم في البلاد العربية.

ويمتد بجنوب الجزيرة قبائل يقال لها: القحطانية، وبشمالها قبائل أخرى يقال لها: العدنانية، ووجدوا في كل من هاتين الأمتين رجالاً لهم عناية بأنساب القبائل فأخذوا عنهم ما يذكرونه في أصل بني قحطان وسموهم المتعربة، وتلقوا منهم أن هذه القبائل العدنانية تتصل بإسماعيل فسموهم المستعربة، وما تأيد من هذه الأخبار بقرآن أو بحث حديث يستند إلى محسوس حل منا محل العلم، وما كان حظه النقل عن أولئك الرواة فقط فإن نافاه حس أو عقل أو سنة كونية رددناه على ناقله خاسئاً، وإن لم يناف شيئاً من هذه الأصول قصصناه عالمين بمبلغه من الظن، ودوناه إلى أن نظفر بما نضعه في محله من أنباء هي أرجح منه وأقوى.

الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية

قال المؤلف في ص ٢٩: «والنتيجة لهذا البحث كله تردنا إلى الموضوع الذي ابتدأنا به منذ حين، وهو أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحاً، ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي قومًا ينتسبون إلى عرب اليمن إلى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتي كان يقول عنها أبو عمرو بن العلاء: إن لغتها مخالفة للغة العرب، والتي أثبت البحث الحديث أن لها لغة أخرى غير لغة العربية.»

قد عرفت أن المؤلف نحا بعبارة أبي عمرو بن العلاء نحوًا من التحريف ليجد فيها من الشاهد لرأيه ما لا يجده حين يوردها على وجهها. وقلنا لك مرة بل مرتين: إن أبا عمرو لا يريد إلا أن بينها وبين العدنانية اختلافًا، وذلك ما لا ينكره قديم أو جديد، ولم يقل: إن لغة اليمن مخالفة للغة العربية بل سمي لغتهم عربية وقال: وما عربيتهم بعريتنا، وخضنا فيما يدل عليه البحث الحديث

وانتهينا إلى أنه لا يعترض الاعتقاد بأن فوارق اللغة القحطانية كانت حوالي القرن الأول قبل الإسلام خفيفة إلى حد أن قبلت الخروج في زي العدنانية بعده بسهولة.

هذا شأن الاختلاف بين اللغتين، أما تشابه الشعر القحطاني والعدناني فله سبيل غير هذا السبيل، والرأي الذي يوافق إجماع الروايات ويؤيده النظر ولا يعترضه البحث الحديث أن الشعراء في جنوب الجزيرة وشمالها أصبحوا من قبل الإسلام ينظمون الشعر بلهجة واحدة أو متقاربة، وإليك البيان: من الواضح الذي تستحي أن تعزوه إلى كتاب أو تقيم عليه شاهداً أن لغة قريش كانت أفصح لغات العرب قاطبة، وسبب هذا التفوق موقع سوق عكاظ وذي المجاز ومجنة من ديارهم؛ إذ كانت القبائل تفد عليها في موسم الحج وتتخذ فيها معرضاً لمصنوعات القرائح ونوادي للتفاخر بالأحساب والأنساب، أو التقاذف بالوعيد والهجاء، وهذا ما يضع لغات العرب بين يدي قريش فتلقط منها ما يستخفه السمع ويتسوغه الذوق، ومن المعقول أن تكون هذه المحافل الأدبية أفادت لغة قريش وزادتها فصاحة على فصاحتها، وتقدمت بها على سائر لغات العرب شوطاً بعيداً.

وإذا قامت في قلب الجزيرة لغة قبضت على أعنة الفصاحة، وكان للناطقين بها مظهر من مظاهر السؤدد، فمن سنة تقليد الأفضل والأجود أن تنزل القبائل إلى محاكاة لهجة قريش ونسج الكلام على منوالها، وأول من يسبق إلى هذا الشأن ذوو الفكر المنتج والخيال الواسع والمعاني الغزيرة وهم الخطباء والشعراء.

فتقارب الشعراء في اللهجة جاء من جهة محاكاتهم بالشعر أفصح لهجة وأشهرها بين القبائل وهي لغة قريش. قال أبو إسحاق الشاطبي في شرح الخلاصة: (2) «فإن الحجازي قد يتكلم بغير لغته وغيره يتكلم بلغته، وإذا جاز للحجازي أن يتكلم باللغة التميمية جاز للتميمي أن يتكلم باللغة الحجازية بل التميمي بذلك أولى.» ومما قال في توجيه هذه الأولوية: «إن الحجازي أفصح وانقياد غير الأفصح لموافقة الأفصح أكثر وقوعاً من العكس.»

فرغبة الشعراء في أن يكون لشعرهم جولة في البلاد العربية بأسرها، ووجود لهجة تشهد القبائل موطنها وتألّفها أسماعهم وترتاح لها نفوسهم مما يحمل

هؤلاء البلغاء على أن يحتذوا في شعرهم حذو هذه اللهجة الفائقة المألوفة. فإذا قرأنا هذه المطولات ورأينا فيها مطولة لشاعر كندي ومطولات لشعراء من ربيعة، ولم نشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافًا في اللهجة أو تباعدًا في اللغة، فالسبب ما لوحنا إليه من أن الاختلاف في أصله يسير، وأن هناك ما يسوق الشعراء إلى أن يتحروا بالشعر أفصح اللهجات وأكثرها وقعًا على الأسماع.

ونحن نعلم أن قبائل اعتنقت الإسلام وفيها بقية من حضارة وعلم بالكتابة فلا يصح أن يبلى شعرها الذي قيل في عهد جاهليتها، فلا بد أن تترث منه نصيبًا مفروضًا، وأن يبقى في يدها ولو الشعر الذي قرب عهده ولم يتوغل في الجاهلية أكثر من مائة سنة، ومن هؤلاء الذين تقلدوا الإسلام ويجب أن يكونوا عارفين بلهجة شعرائهم من شهدوا يوم أصبحت العرب أمة واحدة وحين بدأت القبائل تراجع مآثر شعرائها ومفاخر أحسابها.

ولا يخلو هؤلاء اليمانيون العارفون بلهجة شعرائهم إما أنهم اشتركوا في هذا السباق وقدموا للناس أشعار سلفهم بلهجتها الأولى، ولو فعلوا ذلك لرأينا له في التاريخ أثرًا، أو يحدثنا عنه التاريخ وإن لم يرو لنا منه قافية، كما حدثنا عن أسد بن ناعصه المشبب بخنساء وقال إنه «كان صعب الشعر جدًّا وقلما يروى شعره لصعوبته». (3) وإما أن يكونوا قد طرحوا ما بأيديهم من الشعر القديم ودخلوا السباق بشعر صاغوه في لهجة قريش وعزوه إلى شعرائهم الأقدمين، ومن البعيد جدًّا أن يعدموا في هذا الحال من يعرفون لهجة أولئك الشعراء ويدرون الفرق بينها وبين لهجة قريش فيفسدون عليهم صنيعهم ويحثون في وجوههم الإنكار بملء أفواههم، وواقعة أدبية أو لغوية كهذه لا تمر على الناس من غير أن يضعوها في يد التاريخ وتبدو لنا ولو في شبح ضئيل.

ومما يتعذر قبوله أيضًا أن يضع غير اليمانيين أشعارًا في لهجة قرشية ويعزوها إلى القدماء من شعراء اليمن دون أن يجدوا من اليمانيين أو ممن يعرف لهجة شعراء اليمانيين من ينكر صنيعهم، ويناضلهم بحجة أن هذا الشعر غير منطبق على لهجة أولئك الشعراء.

وانصباب العرب في الحروب والفتوحات إنما يصلح أن يكون علة لضياع

الكثير أو الأكثر من شعرهم، أما أنه يذهب بأثره جملة فواقعة لا يؤمن بها إلا من يكون «على حظ عظيم جدًا من السذاجة».

فالمعقول أن الاختلاف بين اللغة القحطانية واللغة العدنانية قبل الإسلام بعشرات السنين لم يكن كحاله في العصور الغابرة، وأن الشعر كان يظهر في لهجة يسير عليها شعراء القبيلتين للأسباب التي سقناها آنفًا، وإذا فرض أن ينحو شاعر نحو لهجته فأيسر شيء على الرواة تغييره إلى اللهجة الأدبية العامة، وسنعود إلى البحث تارة أخرى.

شعراء القحطانية

قال المؤلف في ص ٣٠: «ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقًا قليلًا ولا كثيرًا بينه وبين شعر العدنانية. نستغفر الله! بل نحن لا نجد فرقًا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن. فكيف يمكن فهم ذلك وتأويله؟ أمر ذلك يسير، وهو أن هذا الشعر الذي يضاف إلى القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية قبل الإسلام ليس من القحطانية في شيء، لم يقله شعراؤها، وإنما حمل عليهم بعد الإسلام لأسباب مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب التي دعت إلى انتقال الشعر الجاهلي في الإسلام.»

قد جئناك بتفصيل القول في أن للشعر لغة غير لغة الكلام، وأقمنا هذا الرأي على ما يتفق مع الرواية المتضافر عليها في الصدر الأول، وأومأنا إلى أن البحث الحديث لا يعترضه في قليل ولا كثير، وهذا الدكتور مرغليوث يقول في صدر مقاله المنشور في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية: «لا نجد في المخطوطات الأثرية شيئًا من الشعر بالرغم من وجود مدنية عالية.»

فلا موضع لعجب المؤلف إذا لم يجد فرقًا قليلًا ولا كثيرًا بين شعر القحطانية وشعر العدنانية. وأما ما يقوله من أنه لا يجد فرقًا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن؛ فإن أراد أنه يوافق لغة القرآن في قواعد نحوها وصرفها وكثير من مفرداتها، فذلك ما لا يناقشه فيه أحد، وسره ما كنا بصدد الحديث عنه من أن

الاختلاف بين اللغتين أصبح ضئيلاً، وأن لغة الشعر والخطابة بين العرب غير اللغة المستعملة في مخاطبتهم العادية، ولا ننسى أن اللغة التي نزل بها القرآن وكان البلغاء في الجاهلية يحتذونها، هي لغة أساسها لغة قريش، وسائر بنائها قائم من لغات شتى.

الإشارات المرجعية:

١. ج ١، ص ٤٢٧.
٢. حكاية البغدادي في خزانة الأدب، ج ٢، ص ١٣٤.
٣. التهذيب للأزهري مادة «نعص».

المصدر:

محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص 61

الكلمات المفتاحية:

#طه-حسين #في-الشعر-الجاهلي

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تركية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.